مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية علمية محكمة، العدد الـ ٥٨، ربيع ١٤٠٠ هـ. ش/ ٢٠٢١ م؛ صص ٤٢-٢١

الأنساق الصوتيّة ودلالاتها في القرآن الكريم؛ «سورة إبراهيم (ع) نموذجاً»

نوع المقالة: أصيلة

عليرضا روستايي[١] على اصغر روانشاد*، وصال ميمندي[٣] على بيانلو[٤]

١.طالب دكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

٢.استاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

٣.استاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

٤.استاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة يزد

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٩/٠٤/٣١ تاريخ قبول البحث: ١٣٩٩/١٠/٢١

الملخّص

يتمثّل النسق الصوتي من خلال التناسق بين سمات الحروف في الكلمات؛ بحيث تكون متناسقة مع المضمون الذي يستفاد من السياق. انطلاقاً من هذا، لقد كانت دراسة الأنساق الصوتية في القرآن الكريم ومازالت محطّ اهتمام الباحثين بغية الكشف عن جماليّات الأساليب اللغوية المتجلّية في طيّاته ممّا يُميط اللثام عن جوانب من الإعجاز الفنّي الكامن فيه؛ ويكون المستوى الصوتي من أهمّ المستويات اللغوية في القرآن الكريم بكونه المحور الأوّل للولوج إلى عالم النصّ وسياق الآيات وفضاءاتها؛ إذ يؤدّي التناسق بين الأصوات ودلالاتها المعنوية إلى إفادة المضمون للمتلقّي على نحو يثير مشاعره. بناءً على ذلك، يهدف هذا المقال إلى دراسة سورة إبراهيم بمنهجه الوصفي-التحليلي والإحصائي معتمداً على المستوى الصوتي (الإيقاعي). يتجلّى من خلال البحث بين أيدي المتلقّي أنّ الصّوت والمعنى متناسقان في سورة إبراهيم (ع)؛ لأنّ الأسلوب يستخدم الأصوات ذات سمة الشدّة والقوّة عندما يدور سياق الآية حول معانٍ يحتاج التعبير عنها إلى الشدّة والقوّة، وعندما يتناول مضامين معبّرة عن الارتياح والهدوء والطمأنينة، نجد من خلالها انتشار الأصوات المهموسة والاحتكاكية والأصوات المتوسّطة بين الشدّة والرّخاوة يغلب على الأصوات الأخرى. فالموسيقى الناجمة عن صفات الحروف من جهة الجهر والهمس والشدّة والرخاوة وكيفيّة انتظامها في سياق الآية، من السمات الإعجازيّة في القرآن الكريم؛ حيث يتناسق ذلك كلّه مع الجوّ الذي تطلق فيه هذه الموسيقى.

الكلمات الرئيسة: سورة إبراهيم (ع)، التناسق الصوتي، الأصوات، الدلالة.

---

*الكاتب المسؤول ravanshada@yazd.ac.ir

المقدّمة

القرآن الكريم كتاب الله الذي أُنزل ليخرج النّاس من الظلمات إلى النور، وفيه إعجاز يبقى على مرّ العصور؛ فسيظلّ إعجازه «مشغلة الدارسين والعلماء جيلاً بعد جيل، ثمّ يبقى أبداً رحب المدى سخيّ المورد، كلّما حَسِبَ جيل أنّه بلغ منه الغاية امتدَّ الأفق بعيداً وراء كلّ مطمح عالياً يفوق طاقة الدارسين» (نجّار، ٢٠٠٧: ٦). ومن وجوه هذا الإعجاز، البنية الإيقاعيّة التي تُعدّ المحور الأوّل للولوج إلى عالم النصّ الأدبي؛ لأنّ السيطرة على النظام الصوتي للغة، هي البداية الأساسية لفهم اللغة وطريق للتوصّل إلى مغزاها.

إنّ البحث في الوظيفة الدلاليّة للألفاظ في الأدب العربي ليس بجديد؛ لأنّ بعض علماء اللغة قاموا باكتشاف أسرار التناسق الصوتي وعلاقته بالمعنى.كما نجد في عصرنا الحاضر أنّ الباحثين يتوجّهون إلى كشف جودة النصّ القرآني من جهة أثر المستوى الصوتي في التعبير عن الأغراض الكامنة في طيّات الآيات؛ حيث يسعى الناقد الأدبي إلى تبيين العلاقة بين النظام الصّوتي ودلالته في النصّ الأدبي. ومن هذا المنطلق، وصل دارسو النصّ إلى أنّ القرآن أثار انتباهاً على «مهمّة الصّوت اللغوي في تحريض الإحساسات عند العرب وإيقاظ الضمائر للتوجّه نحو استعمال الحروف الهجائية في فواتح السّور وفي أسرار الفواصل القرآنيّة وفي قيم الأداء القرآني والدلالة الصّوتية للألفاظ» (الصغير، ٢٠٠٠: ٧٦). ويكون للموسيقى والصّوت اللغوي دورٌ هامٌّ في النصوص الأدبيّة بشكل عام والنصّ القرآني على وجه الخصوص؛ لأنّ كلّ صوت في القرآن وُضِع في مكانه وارتبطت هذه الأصوات ارتباطاً وثيقاً بالمضمون وسياق الآيات والأجواء الدلاليّة السائدة فيها. ينتج التناسق المتمثّل بين الموسيقى والمضمون، عن اختيار الألفاظ وترتيبها في الآية. وعلى هذا، يجد القارئ والباحث الأدبي أمامه تناسقاً بارعاً يأخذه إلى الانفعال بالأجواء السائدة في سياق الآية بكلّ جمالها وموضوعها.

لقد عالج الباحثون سورة إبراهيم (ع) من ناحية الموسيقى؛ وهي التناسق بين إيحاء الصّوت ومعنى الكلمة وصفات الحروف من جهة الجهر والهمس والشدّة والرخاوة ودورها في إثارة مشاعر المتلقّي مع جوّها المعنوي الذي يطلق فيه هذا الإيقاع الصوتي. فجديرٌ بالذكر أنّ التناسق الصوتي في القرآن الكريم يتجلّى من خلال ظواهر عديدة نحو موسيقى الفواصل والمقاطع الصوتيّة والتكرار والسجع وغيرها؛ ولكن نظراً لأنّه لا يَسَعنا المقام في هذه العجالة، سيقتصر البحث الحالي على

دراسة نسبة شيوع الأصوات المجهورة والمهموسة والرخوة والشديدة وعلاقتها بالمضامين المتوخّاة من النصّ.

منهج البحث

ترتكز هذه الدراسة على المنهج الوصفي- التحليلي؛ فإنّه أسلوب من أساليب التحليل في النصوص متمركزاً على معلومات شاملة عن موضوع للحصول على نتائج علميّة. إنّ هذا المنهج يقوم على وصف الظاهرة أو الموضوع المراد بحثه اعتماداً على جميع الحقائق والبيانات وتحليلها تحليلاً دقيقاً للوصول إلى نتائج يمكن تعميمها على باقي الظواهر (مبارك، ١٩٩٢: ٣٠). وهذا التحليل ممّا يساعد المتلقّي في فهم النصوص المقدّسة وخاصة نص القرآن الكريم. فمن هذا المنطلق، تطرّق البحث إلى تحليل سورة إبراهيم (ع) بما فيها من موضوعات نحو جدال الرّسل مع الكفّار لإثبات مسائل التوحيد والمعاد وما يشاكلها؛ وذلك كشفاً عن مستوى التناسق بين جوّها المعنوي وبين طبيعة الأصوات المستخدمة فيها وتأثيرها على المتلقّي.

لقد قام الباحثون في هذه المقالة بتحليل مضمون السورة وآياتها في مواضع مختلفة وكيفيّة تلاؤم هذه المضامين مع البنية الموسيقيّة؛ وذلك من خلال تعريف شامل عن الظواهر الصوتيّة التي ارتكز عليها البحث، نحو صفات الحروف من جهة الجهر والهمس والشدّة والرخاوة وكذلك علاقة مدلول اللّفظ بأصوات حروفه.

فتمّت فيها دراسة ظواهر الأصوات ودلالاتها في سورة إبراهيم (ع) عبر جداول إحصائيّة للإجابة عن السؤالين التاليين:

- كيف تجلّى التناسق بين الموسيقى والمضمون في سورة إبراهيم (ع) من خلال الأصوات؟
- إذا كان هذا التناسق متمثّلاً في سياق الآية، فكيف يشارك في إفادة المضمون إلى المتلقّي؟

خلفيّة البحث

سجّل الباحثون في مجال دراسة الأصوات وبلاغتها في القرآن الكريم، مقالات وكتباً عديدة نشير منها إلى ما تكون على صلة بموضوع البحث:

كتاب محمد إبراهيم شادي (١٩٨٨م) المعنون بـ«البلاغة الصوتيّة في القرآن الكريم»؛ لقد تناول هذا الكتاب بعد نظرة شاملة لإشارات علماء التراث والمحدثين إلى البلاغة الصوتيّة، موضوع الجرس والإيحاء وانسجام التأليف وأسباب الانسجام. وفي خلال هذه الموضوعات، قام بإيثار الكلمات في سياق بعض الآيات وتحليل تكرار أصوات الحروف في بنى الكلمات ودلالاتها وإيحاءاتها ومناهج انسجامها في السياق. مقالة جنان محمّد مهدي (٢٠١٠م) المعنونة بـ«الإيقاع الصّوتي والإيحائي في سياق النصّ القرآني»؛ لقد تناولت هذه المقالة دراسة وظيفة الأصوات في البنية اللغويّة وتأثيرها في سياق النصّ. توصّلت الباحثة في هذه المقالة إلى أنّ هندسة التركيب القرآني متكاملة وتسعى في جانب الإيقاع الصّوتي منها إلى الإيحاء بالمعنى من خلال التناسق الإيقاعي بين أصوات الألفاظ فيما بينها موحية بموسيقيّة متناغمة بالدلالات الخفيّة للمعاني الكامنة وراء أستار وحدات النصّ. رسالة ماجستير محمد الصغير ميسة (٢٠١١م) بعنوان «جماليات الإيقاع الصوتي في القرآن الكريم»؛ حاول الباحث تحليل الجوانب الجمالية في الفواصل القرآنيّة مرتكزاً على السور القصار كما عالج ظاهرة العدول الصوتي وأشكاله وأهمية المقاطع الصوتيّة في تناسق الأصوات. فمن أهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة هي أنّ الفاصلة في القرآن تراعي المعنى وسياق السورة والإيقاع في الفواصل القرآنيّة تابعٌ للأسلوب. كذلك المقاطع الصوتيّة والعدول الصوتي مصدر هامّ من مصادر الإيقاع القرآني. مقالة كبرى روشنفكر وزملائها (١٤٣٦ق) تحت عنوان «الدراسة الصّوتيّة في لغة القرآن ودلالتها في الآيات الفقهيّة- آيات الحجاب نموذجاً»؛ تهدف هذه المقالة إلى دراسة صوتيّة في آيات الحجاب بالمنهج الإحصائي- التحليلي، قد توصّلت نتائج البحث إلى أنّه هناك بين الأصوات والمعاني المقصودة علاقة وثيقة فالأصوات بصفاتها الخاصة تتناسب مع المضمون والمقام. مقالة عيسى متّقي زاده وزملائه (١٤٣٧ق) بعنوان «مشاهد القيامة في القرآن الكريم؛ دراسة صوتيّة في سورة الواقعة، الحاقّة والانشقاق»؛ حيث درست من خلال جداول إحصائيّة، ملامح الموسيقى الداخليّة والخارجيّة في آيات القيامة في السّور المذكورة لتبيين علاقتها بمدلول الآيات. فمن النتائج المعثور عليها في هذه المقالة هي انسجام الإيقاع الصوتي والموقف الذي سيق من أجله. وإطارنا في دراسة صفات الحروف يشبه هذه المقالة ولكن لم تتطرّق هذه المقالة إلى دراسة التناسق بين معنى الكلمات مع أصوات حروفه. مقالة عزّة عدنان أحمد عزّت (٢٠١٦م) بعنوان «التحليل الصّوتي وارتباطه

بالسياق القرآني في سورة مريم»؛ تناولت دراسة صفات الأصوات ومخارجها والمقاطع الصّوتيّة وإظهار أثر ذلك في السياق من خلال المنهج الإحصائي- التحليلي. وأشارت النتائج إلى أنّه هناك انسجام تامٌّ بين الآيات من ناحية الملامح الصوتية والحقول الدلالية فيها، ولا يتناقض أيّ مستوى من مستويات التحليل مع المستوى الصّوتي.

من خلال مراجعة الدراسات الآنفة الذكر والعشرات مثلها تبيّنت لنا جوانب مختلفة من تمثّل الموسيقى في القرآن الكريم؛ لكنّ معظمها عالجت ملامح الموسيقى في النصّ القرآني بشكل عامّ أو تركزت على موضوعات كالحجاب والقيامة ولا تتجاوز إلى إدراك التناسق الصوتي، حسب ما يقتضيه المعنى وتناسق الموسيقى مع المضامين الكامنة في الآيات عندما يتغيّر خطاب الآية في مواضع مختلفة كشفاً عن مدى تأثيرها على المتلقّي؛ إلّا أنّ الباحثين في هذا المقال ركزوا على تحليل موسيقى صفات الحروف من حيث الشدّة والرخاوة، إلى جانب دراسة المفردات من جهة التناسق بين دلالاتها وأصوات حروفها.

لمحة عن سورة إبراهيم (ع)

تُعدّ سورة إبراهيم (ع) من السّور المكيّة وتشتمل على اثنتين وخمسين آية. تتناول هذه السورة موضوعات متعددة، ومن أهمها مسئلة الوحي والرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء ومواجهة الرسل والكفّار وما جرى بينهم من جدل ونقاش في مشهد الدنيا والآخرة. وينطوي عدد من آيات السورة على خطبة الشيطان أمام الكافرين بعد إغوائهم. تنقسم السورة إلى مقطعين متماسكي الحلقات: المقطع الأوّل يتضمّن بيان حقيقة الرسالة والرسول ويصوّر المعركة بين أمّة الرسل وفرقة المكذّبين ووقوفهم في مواجهة الجاهلية المكذّبة في الدنيا والآخرة. والمقطع الثاني يتحدّث عن نِعَم الله تعالى، والذين كفروا بهذه النعم وبطروا، والذين آمنوا بها وشكروا ونموذجهم الأوّل هو إبراهيم (ع). وفي نهاية المطاف، يصوّر مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها بالحركة والحياة.

١. علاقة الصّوت بالمعنى في الإطار النظري

إنّ التناسق الصوتي في القرآن الكريم طريقة تساهم في نقل المعاني المرجوّة إفادتها إلى المتلقّي من خلال الانسجام والانتظام بين أصوات الحروف ودلالاتها المعنويّة؛ لأنّ «كلّ حرف له صوت، ترجع طبقته من التنغيم إلى مخرجه من جهاز النطق وقد قام العلماء بتشريح هذا الجهاز وبيان المخارج التي تنسب إليها حروف الهجاء العربيّة وكأنّها أوتار يعزف عليها اللسان. فيخرج من كلّ وتر صوت، فتسمع الأذن من هذا همساً ومن هذا جهارةً، ومن أحدها رخاوةً ومن الآخر شدّةً... وكلّ يعبّر تعبيراً تحسّه الأذن ويفسّره العقل والوجدان، التفسير اللائق بإيقاعه» (عزالدين، ١٩٨٦: ١٣). وتشكل الأنساق الصوتيّة في النصوص إيقاعاً من خلال الموسيقى الناتجة عن صفات الحروف من ناحية الجهر والهمس والشدّة والرخاوة على مستوى المفردة والآية في السورة؛ حيث يتمثّل النسق الصوتي من خلال الانتظام بين سمات الحروف في الكلمة وورودها في النصّ ومعانيها وغرضها الذي جاءت له (السلمي، ١٤٣٥: ٣١١). كما أنّ «لكلّ صوت إيحاءاته وقيمه الأسلوبية الموائمة للسياق. فإيقاع الأصوات في سياق الفرح يغاير نظيره في سياق الحزن وكذا الوعد والوعيد» (عبدالعزيز، ٢٠١٦: ١٧).

إنّ الهمس والجهر من أوّل مراحل التكوين الصّوتي بنسبة حركة الأوتار الصّوتيّة وتذبذبها خلال النطق بهما قويّاً أو ليّناً. يعرف الجهر " voicin " في اللغة العربيّة بالصّوت الذي تتذبذب الأوتار الصّوتيّة حال النطق به. وجاء في تعريف الأصوات المجهورة بأنّه «قد يقترب الوتران الصّوتيان بعضهما من بعض في أثناء مرور الهواء وفي أثناء النطق، فيضيق الفراق بينهما بحيث يسمح بمرور الهواء ولكن مع إحداث اهتزازات وذبذبات سريعة منتظمة لهذه الأوتار» (بشر، ٢٠٠٠: ١٧٥). والأصوات المجهورة هي: «الباء والجيم والدال والذال والراء والزاي والضاد والظاء والعين والغين واللام والميم والنون والواو والياء». أمّا الهمس في اللغة فهو عكس الجهر يعني عدم اهتزاز الأوتار الصّوتيّة عند مرور الهواء بها أثناء النطق وجاء في تعريفه: «هو الذي لا يهتزّ معه الوتران الصّوتيان ولا يسمع لهما رنين، حين النطق» (أنيس، ١٩٧٥: ٢٠). والأصوات المهموسة هي: «التاء والثاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والطاء والفاء والقاف والكاف والهاء».

صفة الشدة أو الانفجار "plosives" فهي تتكوّن عندما «يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبساً تامّاً في موضع من المواضع وينتج عن هذا الحبس أو الوقف أن يضغط الهواء، ثمّ

يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة، فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً» (السعران، ١٩٩٧: ١٢٨). والأصوات الانفجارية في اللغة العربية هي: «الباء والتاء والدال والضاد والطاء والقاف والكاف وهمزة القطع». أمّا صفة الرخاوة التي يسمّيها المحدثون بالأصوات الاحتكاكيّة "fricalives" فـ«عند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً؛ بل إنّ النفَس في أثناء مروره بمخرج الصّوت يحدث نوعاً من الصفير أو الحفيف مختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى» (أنيس، ١٩٧٥: ٢٢-٢٤؛ بشر، ٢٠٠٠: ٢٠٠). والأصوات الاحتكاكيّة أو الرخوة في اللغة هي: «الثاء والحاء والخاء والذال والزاي والسين والشين والصاد والعين والغين والفاء والهاء». وهناك أصوات تتوسّط بين الشدّة والرخاوة التي يمرّ معها الهواء دون أن تحدث صفيراً أو حفيفاً، إذ ليس في المجرى، احتباس أو احتكاك وهي: «الألف والراء واللام والميم والنون والواو والياء » (نجّار، ٢٠٠٧: ١٨٥).

١.١. التناسق الصوتي بين الكلمة وبُعدها الدلالي

يهتمّ القرآن الكريم بالتناسق الصّوتيّ للكلمة وعلاقة الصّوت بالمعنى وهذا التناسق الصوتي يكشف للمتلقّي عن القيمة الذاتيّة للكلمة من ناحية ورودها في سياق الآية. تشكّل هذه الظاهرة سرّاً عجيباً في القرآن الكريم، بحيث الإنسان عندما يقرأ هذا الكتاب فهو دوماً في مواقف ومشاعر متباينة يمرّ بها أو تمرّ عليه، فينشرح صدره مرةً ويرتعد قلبه تارةً أخرى، وفي بعض الأحيان تفيض عيناه بالدموع وترتعد فرائصه من الرعب، وتتوالى أمامه الصّور حتّى يكاد يلمس المعنى بيده ويراه (برمة، ٢٠١٧: ٥). ولذلك لا يجد القارئ الأدبي في بنية كلمات النصّ القرآني أيّ تنافر، بل يجد بين كلمات هذا الكتاب وأصواتها والمعاني المتوخّاة من كلّ منها تناسقاً ملفِتاً، حيث أنّ الصّوت داخل الكلمة في خدمة المعنى المراد. كما أشار إلى هذا سيّد قطب قائلاً: «إنَّ لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة، تارةً بجرسه الذي يلقيه في الأذن وتارةً بظلّه الذي يلقيه في الخيال وتارةً بالجرس والظلّ جميعاً» (سيد قطب، ٢٠٠٤: ٩١). فعلى هذا، عندما كان القرآن الكريم ينزل على قلب النبيّ (ص) تدريجياً وبينما كان حضرته يتلو الآيات أمام جمهور العرب وهم يصغون إليه، كان لهذه الموسيقى بالغ الأثر فيهم وإن كانوا كافرين. وهذه دلالة على أثر الصوت وعلاقته بالمدلول في القرآن الكريم. ومن خصائص الأسلوب القرآني أنّه «يختار من الأصوات أيّها أقرب إلى المقصد، ففي الجدال نجده يختار ألفاظ الحجّة ودحض الشبهة فالأصوات تميل إلى الإقناع، وفي مواطن

الوصف نجد أصوات الألفاظ تميل إلى الواقع، وفي مواطن اللين يختار الأصوات والألفاظ أيّها أخفّ على الأسماع وأرفق بالطباع، ومواقع الشدّة يلجأ إلى الأصوات والألفاظ القويّة الشديدة التي تبعث بالزجر والوعيد» (برية، ٢٠١٧: ٥). يبرز أثر التناسق الصوتي في الكلمات ضمن صفاتها ومخارجها كذلك من خلال الجرس والمؤشرات الأخرى، وهذه الظاهرة تُكسِب بعداً دلالياً موحياً للمتلقّي.

وحينما ننظر في سورة إبراهيم (ع)، نجد بين أيدينا أنّ الصّوت في كلماته لم يطلق منعزلًا دون فائدة؛ بل يتناسق مع السياق الذي ورد فيه. فيستخدم الله تبارك وتعالى الدلالات الصّوتية للكلمات في تأكيد معناها ضمن السياق في سورة إبراهيم (ع)، خاصةً في مقام الوعيد والإنذار للكافرين. وما يدلّ على هذا –على سبيل المثال– كلمة «صديد» في الآية ﴿**وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ**﴾ (إبراهيم: ١٥) يشير سياق هذه الآية والآية التالية لها إلى عاقبة الكافرين وشدّة عذابهم في الآخرة. فيستخدم النصّ القرآني كلمات يتناسق صوتها مع دلالتها المعنويّة. "الصديد" بمعنى «الدّم المختلط بالقيح أو الحميم أغلى حتّى حَثرَ أي غَلُظ أو ما يسيل من جلود أهل النار» (الزبيدي، ٢٠١٠: ٢٨٦). فنجد في هذه الآية الكراهة والشدّة والخشونة حين الشرب. يقول الشوكاني عن هذه الكلمة: «اشتقاق الصديد من الصدَّ لأنّه يصدّ الناظرين عن رؤيته. أي يتكلّف بلع هذا الصديد» (الشوكاني، ٢٠٠٧: ٩٤٦). نرى إيحاء صوت "الدّال والصّاد" على معنى الشدّة في كلمة "صديد"؛ لأنّ «صوت الدّال لا يوحي إلّا بالأحاسيس اللمسيّة وبخاصّة ما يدلّ على الصلابة والقساوة. وبذلك أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدّة» (عبّاس، ١٩٩٨: ٦٧). وحين تلفّظ صوت "الدال" في الجهاز النطقي، يدرك المتلقّي هذه الشدّة من خلال حالة النطق به عند التقاء طرف اللّسان بأصول الثنايا العليا التقاءً محكماً يعدّ حائلاً لا يسمح بتسرّب الهواء. تلفّظ "الدّال والصّاد" والإيحاء الكامن في الحرفين، يوحيان إلى المتلقّي بحالة من الكراهيّة وتكلّف البلع لدى الكفّار. كذلك ينقلان، حالة الكفّار وشدّة كراهتهم حين شرب هذا الماء الصديد إلى المتلقّي من خلال صوت «الصاد» الصفيري الذي فيه شدّة وقوّة وحين أدائه أنّ «مؤخر اللسان يرتفع نحو الطبق ارتفاعاً يقربه من الجدار الخلفي للحلق أثناء النطق» (كمال الدّين، ١٩٩٩: ٢٩). تبدأ الآية اللاحقة بلفظة "يَتَجَرَّعُ" في ﴿**يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوبِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**﴾ (إبراهيم: ١٦) وهذه اللفظة أيضاً تشير إلى شدّة الصعوبة التي

يتحملها الشارب عند بلع هذا الماء الصديد. إضافةً إلى تشديد "الراء" الذي يوحي بصعوبة البلع، وتشارك في انتقال هذا المعنى طريقةُ أداء صوت "الجيم" اللثوي المجهور وصوت "العين" الحلقي المجهور. كما أنّ كلمة "غليظ" تدلّ على الخشونة والغلظة وهذا المعنى يتكرر في صفات حروفها وطريقة أدائها عند النطق.

وإنّ كلمتي "مُهْطِعِينَ ومُقْنِعِين" في الآية ﴿**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾ (إبراهيم:٤٣) وردتا في مشهد يتوعّد الله تبارك وتعالى الكافرين من اليوم العصيب الذي تشخص الأبصار فيه ويرسم مشهداً في زحمة الهول الذي لا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم من الرعب والحزن وقلوبهم من الفزع خاوية (سيد قطب، ٢٠٠٣، ج٤: ٢١١١). وتوحي هاتان اللفظتان بهيئة الكفّار وسيماهم حين مشاهدة أحداث القيامة؛ حيث نرى في هذا المنظر، الأصوات التي تساهم في نقل المعنى من خلال موسيقاها. خُذ مثلاً تناسق حرف "النون" في هاتين الكلمتين مع الألم العميق في وجه الكفّار؛ لأنّه «صوت هيجاني ينبعث من الصميم للتعبير عن الألم العميق، وهو أصلح الأصوات قاطبة للتعبير عن مشاعر الألم والخشوع» (عبّاس، ١٩٩٨: ١٦٠). كما يوحي صوت "الهاء" بالتشويش والقلق الكامن في الكافرين؛ لأنّه «باهتزازاته العميقة في باطن الحلق يوحي أوّل ما يوحي بالاضطرابات النفسية» (*السابق*، ١٩٢). وفي صوت «الميم» دلالة على عدم رضاهم من أحوالهم وأوضاعهم التي وردوا فيها؛ لأنّ صوت "الميم" الخيشومي إضافةً على إلقاء العجز وسوء الحظّ، يشير إلى عدم الرضا والاستياء (قويمي، ١٣٨٣: ٤٩). ومن سمات صوت "العين"، تعامله مع الحروف الأخرى، ومصاحبته معها إلى تحقيق خصائصها الذاتيّة أو يساق معها للتعبير عن خصائصها الحسّية واللغويّة (عبّاس، ١٩٩٨: ٢١٢). وإنّ مصاحبة هذه الأصوات بعضاً لبعض في بنية هاتين الكلمتين، عنصر إيجابي في فهم المعنى وإلقائه إلى المتلقّي. وهذه كلّها تبرز من خلال الانسجام والتناسق الموجود بين الأصوات التي تؤدّي دوراً هاماً في تكوين المعنى.

وفي الآية ﴿**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾ (إبراهيم: ١٣) يتغيّر نوع الخطاب ويتكلّم سبحانه بالوحي مع رسله بصوت منبعث عن الحبّ والشّفقة ويبشّرهم بالنصر، موجّهاً إليهم الطمأنينة. وحينما نبحث عن كلمة "أَوْحَى" في معاجم اللغة، نجد هذه الكلمة مشتقّة من فعل "وَحَىَ" بمعنى إلقاء المعنى على النفس، على وجه يخفى من دون أن يرى ذلك من الخلق. «وَحَى

إليه وأَوْحَى: كلَّمه بِكَلَامٍ يُخفِيه مِنْ غَيْرِهِ» (ابن منظور، ١٤١٤، ج١٥: ٣٧٩). الحروف أو الفونيمات التي تتألّف منها هذه اللّفظة، مشتقّة من الصفات الصّوتيّة الرخوة التي تتناسق مع دلالتها المعنويّة. يقع في بداية هذه الكلمة حرف "الواو" المدّية وبعدها "الحاء" المهموسة الرخوة التي «بخفيف النفس أثناء خروج صوتها من أعماق الحلق، يرفد اللسان العربي بأعذب أصوات الدنيا قاطبة وأوحاها بمشاعر الحبّ والحنين» (عبّاس، ١٩٩٨: ١٨٢). ثمّ "الياء" المدّية التي تُلقي على الذهن صوتاً مهدئاً مريحاً يشير بالهمس المنخفض (قويمي، ١٣٨٣: ٢٢-٢٧). وكلّ هذه الصفات توحي بالهمس المنخفض والمختفي حين يتحدّث المولى العزيز إلى رسله حيث تُفيد إلقاء الحبّ والسكينة الموجودة في كلمة "وحي" عبر الحروف إلى المتلقّي. وكذلك نلاحظ ما يتلو هذه الآية فعل "اسْتَفْتَحُوا" في ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ (إبراهيم: ١٥) الذي يجوز أن يكون معطوفاً على جملة «**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**» (ابن عاشور، ١٩٨٤، ج١٣: ٢٠٩) حيث من المشاهد في الآية، أنّه يلجأ الرسل إلى ربّهم ويسألونه النصر على الأعداء. ومطالبة هذا السؤال من جانب الرسل تحدث في مشهد يفيد إلى المتلقّي حالة من الرعب والتهويل في حين يدلّ فعل "اسْتَفْتَحُوا" الذي يمثّل طلب الرسل من الله تعالى، على نوع من السكينة والهدوء من خلال توظيف الأصوات الرخوة والمهموسة؛ إذ يوحي ـعلى سبيل المثالـ فونيم "السين" الرخوة والمهموسة بحيويّة وحركة الرسل لطلب النصر من ربّهم. وهي «الحركة والطلب والبسط، عندما يقع في أوائل الألفاظ» (عبّاس، ١٩٩٨: ١١٤). وصوت "الحاء" كما مرّ سابقاً، يوحي بمشاعر الحبّ والحنين. فنجد في سياق متواصل أيضاً صوتَ "الفاء" بخفيف صوته الرقيق يوحي بلمس مَحملي دافئ (*السابق*: ١٣٢) ممّا يعبّر عن المشاعر الودّية التي وجّهتها الرُّسل إلى المولى القدير عند مناجاتهم له، طالبين منه الفتح والنصر على أعدائهم الجبابرة.

ومن خلال هذا البحث وبعد دراسة عدد من الكلمات في سورة إبراهيم (ع) وتحليل أصواتها ومعانيها، حصلت النتيجة أنّه تتناسق الأصوات داخل اللّفظ مع المعنى المقصود، وأنّ التناسق والانسجام والانتظام الصوتي في كثير من الكلمات، يوحي بالمعنى الكامن في اللفظ، ممّا يدلّ على حيويّة لغة القرآن ونظمها وإعجازها.

٢.١. النسق الصوتي بين الأصوات المجهورة والمهموسة وبُعدها الدلالي

تتوزّع الأصوات المجهورة والمهموسة في سورة ابراهيم (ع) حسب الجدول التالي:

الجدول الأوّل: الإحصاء الوصفي عن الأصوات المجهورة والمهموسة المتوزّعة في سورة إبراهيم (ع)

صفات الحروف	تواتر الأصوات	النسبة المئوية
الأصوات المجهورة	٢٠٨٦	٧٥%
الأصوات المهموسة	٦٨٢	٢٥%
المجموع	٢٧٦٨	١٠٠%

كما مرّ آنفاً أنّ الأصوات المجهورة والمهموسة تُعدّ من أوّل مراحل التكوين الصّوتي بنسبة حركة الأوتار الصّوتيّة وتذبذبها خلال النطق بهما من حيث القوّة والليونة. قد أثبتت الدراسات الصّوتيّة الحديثة أنّ تواتر الأصوات المجهورة وتواردها في أيّ نص أدبي بنسبة الأصوات اللغوية الأخرى كثير وهو على غرار ما نشاهد في الجدول أعلاه؛ حيث يقول البعض إنّه من الطبيعي أن يكون كذلك وإلّا «فقدت اللغة عنصرها الموسيقيّ ورنينها الخاصّ الذي نميّز به الكلام من الصمت والجهر من الهمس» (أنيس، ١٩٧٥: ٢١). فضلاً على ذلك، فللأصوات المجهورة سمات بارزة منها: الارتفاع في شدّة الصّوت إذ فيها من القوّة والوضوح والتأثير ما لا يكون لغيره من الأصوات (مروان، ٢٠٠٦: ٨).

وعند التأمّل في آيات السورة والأجواء السائدة عليها، نجد انتشار الأصوات المجهورة في العديد منها، على غرار غيرها من السّور المكّية؛ لأنّ موضوع هذه السّور يدور على جدال الرسل والمشركين لإثبات الوحي والرسالة والبعث والحساب والجزاء. وإثبات هذه الأمور والمضامين يستلزم الشدّة والقوّة والوضوح حين أداءها. وممّا تفيده الأصوات المجهورة في الكلام، هو الوعيد والتهديد. على هذا، يجد المتأمل خلال إحصاء الآيات جهراً وهمساً، أنّ الآيات التي مضمونها الوعيد والتهديد والإنذار، تغلب فيها الأصوات المجهورة؛ لكي تنقل الشدّه والقوّة إلى المتلقّي من خلال الأصوات التي من سماتها البارزة، القوّة والوضوح. وتنسجم الأصوات مع المعنى الذي تحمله الآية. وهذا التناسق بين المعاني وبين الأصوات في بنية الآيات يُسفر عن بيان المعاني الدلالية بصورة واضحة ومؤثّرة في السمع.

نذكر من أمثلة الوعيد والتهديد ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ (إبراهيم: ٢) يتناول نص الآية قضيّة تهديد الكفّار من عذاب الله بعدما بيّن سبحانَه مظاهر قدرته في بداية الآية، وهو اختصاص كلّ ما في السماوات وما في الأرض له. والتهديد ممّا يستلزم الوضوح

والقوّة في بيان معناه. وغلبة الأصوات المجهورة «الواو والياء واللام والراء والنون والعين والباء والذال والدال» في الآية، تظهر لنا ملامح الشدّة والقوّة والوضوح الموجود في الآية ليتمّ بها انسجام الصّوت مع المعنى. إضافةً إلى هذا، فمن خلال استخدام حرفي "الباء والدال" في كلمتي "عَذَابٍ شَدِيدٍ" تمّ تصوير شدّة العذاب بين أيدي المتلقّي من الناحية الصّوتية، انطلاقاً من الانسجام الإيقاعي الذي تنطوي عليه الكلمتان مع المعنى ليؤثّر على آذان السامعين. وهذان الحرفان المجهوران في نهاية كلمتي "عَذَابٍ شَدِيدٍ" من جهة شدّة نطقهما في الجهاز النطقي، يدلّان على شدّة العذاب التي تنتهي إليها مغبّة الكافرين. واستخدام هذه الصفات مع ميزتها الصوتيّة في بنية الآية، تساعد على حدوث التناسق الصوتي وإظهار المعنى الدلالي وتأثيرها العميق في نفس المتلقّي.

إنّ انتشار الأصوات المجهورة والمهموسة في النصوص الأدبيّة «يوفّر لها ظلالاً من المعاني؛ وإذا كانت مجهورةً، ازداد المقام تفخيماً؛ لانّها تتّصف بحركة قويّة يشتدّ بها انتباه السامع» (زهار، ٢٠١٣: ٦). وحينما أراد الله تبارك وتعالى أن يصف حالة إنكار الكافرين وجهرهم في التكذيب، يصوّر تصويراً رائعاً تتناسق فيه الموسيقى المنتجة عن جهر الأصوات مع المعنى المتضمّن بالآية ويقول: ﴿**فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ (إبراهيم: ٩) حيث تمّ تصوير هيئة الكفّار وهم جعلوا أيديهم في أفواههم، كناية عن رفض دعوة الرسل. وعندما نمعن النظر في هذا التصوير المدهش، نجد انتشار الأصوات المجهورة مع شدّتها في خدمة مضمون الآية ممّا يشدّ انتباه السامع في حين يتناسق مع السياق الذي يتوخّى لفت أنظار المتلقّي إليه؛ لأنّه «يرسم السياقُ هذه الحركةَ التي تدلّ على جهرهم بالتكذيب والشكّ وإفحاشهم في هذا الجهر وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق إمعاناً منهم في الجهر بالكفر» (سيد قطب، ٢٠٠٣، ج٤: ٢٠٩٠). إضافةً إلى هذا، لقد تكرّر حرف "الراء" مجهوراً أربع مرّات؛ يصوّر هذا التكرار اهتزاز حركة يد المنكرين أمام أفواههم لتمويج الصّوت لكي لا يُسمَع صوت دعوة الأنبياء؛كما أنّ تكرار حرف "الباء" ثلاث مرات، يصوّر لنا شدّة صوتهم حين تكراره.

والمشهد النهائي في سورة إبراهيم (ع) هو مشهد يموج فيه الرعب والعذاب المتلظّي؛ ذلك المشهد الذي ينقل شدّة عذابه مستعيناً بموسيقى الأصوات المجهورة ذات صفة الشدّة والوضوح

إلى المخاطب وينصت المخاطب أمام هذا المنظر الذي صوّره الله جلّ وعلا أمامه بواسطة انسجام الحروف والكلمات. ﴿**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ**﴾ (إبراهيم: ٤٩) ﴿**سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾ (إبراهيم: ٥٠) فإنّ الشدّة والقوّة والوضوح في الحروف المجهورة «الواو والتاء والراء والياء والميم والجيم والنون والذال والدال والباء والغين»، كلّها تمدّ المتلقّي على إقامة تواصل بينه وبين مدلول الآيتين السابقتين؛ إذ نرى أنّه يقتضي سياق الترهيب وتشديد العذاب في هذه الآيات، توظيفَ صفات القوّة والشّدة في أصوات الحروف؛ فتغلّبت الحروف المجهورة على المهموسة بكلّ وضوح. ويساعد هذا الاتّساق الموسيقيّ بين ميزة الصفات المجهورة ودلالتها على وقع المعاني الموجودة في الآيتين في قلب السامع.

فيمكن أن نستدلّ عند إحصاء الأصوات المهموسة في السورة، بأنّ الله تبارك وتعالى في سياق خطاب متغيّر وعندما أراد أن يتكلّم مع عباده الصالحين، استفاد من الأصوات المهموسة؛ لأنّ طبيعة الصوت المهموس تشكّل عنصر الراحة «وكأنّ المتكلّم يريد أن يقرب السامع منه ويهمس في أُذنه. والمؤمنون من أقرب الخلق إلى الله في هذا الوصف» (مروان، ٢٠٠٦: ١٠). وحين مجادلة الرسل مع الكفّار، يقول الكافرون لرسلهم: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ (إبراهيم: ١٣) فيُنزِل المولى العزيز جنودَ التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رسله والمؤمنين (الشعراوي، ١٩٧٧،ج١٢: ٧٤٥٩)؛ وهذا ما يعبّر عنه قول الحقّ سبحانه في: ﴿**فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**﴾ (إبراهيم: ١٣) و﴿**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ**﴾ (إبراهيم: ١٤) و﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ**﴾ (إبراهيم: ١٥) حيث نرى في جميع هذه المقاطع القرآنيّة انتشار الأصوات المهموسة «الفاء والحاء والهاء والسين والكاف والتاء والخاء» التي استخدمها سبحانه وتعالى لإفادة حسّ السكينة والطمأنينة الموجودة في المعنى من خلال أصوات الحروف؛ لأنّ الأصوات «إذا كانت مهموسةً، كان الصّوت خافتاً والحس مرهفاً فيوجب تأمّلاً وتوقظ حركة الوجدان؛ لأنّه غالباً ما يكون في مقام الحزن والاشتياق» (زهار، ٢٠١٣: ٤).

وتُعدّ سورة إبراهيم (ع) من السّور المكيّة التي جاء إثبات الرّسالة والتوحيد والبعث والمعاد كموضوعاتها الأساسية. وحين قراءة السّورة، تتجلّى للقارئ ملامح جدال عنيف بين الرّسل والكافرين حول إثبات هذه الموضوعات التي –كما لاحظنا– تحتاج في بيانها إلى الوضوح والقوّة. بناءً على هذا، تغلب الأصوات المجهورة على الأصوات المهموسة في النصّ الأدبي، كما اتّضح في هذه السورة عند إحصاء الحروف المستخدمة ضمن آياتها من حيث الجهر والهمس، أنّ توارد

الأصوات المجهورة غالب على نظيرتها المهموسة. لذلك نرى عندما يدور الحديث حول الموضوعات التي تحتاج في بيان معناها إلى الشدّة والقوّة والوضوح، يتمّ اختيار الأصوات المجهورة التي تؤثّر في الآذان وتترك أثراً عميقاً في ذهن المخاطب. وهذه سمات توجد في الأصوات المجهورة. ولكن حينما راح النصّ القرآني نحو الأحاسيس المرهفة، ينتقي الأصوات المهموسة لكي تنقل من خلالها السكينةُ والطمأنينةُ إلى الرسل والمؤمنين حين جدالهم مع الكفّار في مشهد الدنيا والآخرة.

٣.١. النسق الصوتي بين الحروف الشديدة والرخوة وبعدها الدلالي

تتوزّع الأصوات الشديدة والرخوة في سورة إبراهيم (ع) حسب الجدول التالي.

الجدول الثّاني: الإحصاء الوصفي عن الحروف الشديدة والرخوة في سورة إبراهيم (ع)

صفات الحروف	تواتر الأصوات	النسبة المئوية
الأصوات الشديدة	٦٩٩	%٥٦
الأصوات الرخوة	٥٥٧	%٤٤
المجموع	١٢٥٦	%١٠٠

الأصوات ذات سمة الشدّة والرخاوة كما تقدّم ذكرها، يُبنى تعريفها على كيفية خروج الهواء عند النطق. وانتشار الأصوات الشديدة والرخوة في سورة إبراهيم (ع)، متناسق مع جوّها المعنوي؛ لأنّ المفاهيم والمعاني المختارة في سياق الآيات يختلف بعضها عن الآخر. لذلك إذا كان السياق يحمل دلالة الشدّة فيختار النصّ بُنى صوتيّة شديدة، تناسق الأجواء المحيطة بذلك المعنى وإذا كان السياق يحمل دلالة الراحة والرأفة فينتخب النصّ بنى صوتيّة رخوة، مناسبة مع المضمون.

والصفة التي تجمع بين الأصوات الشديدة، هي انحباس الهواء معها عند مخرج كلّ منها انحباساً لا يسمح بمروره حتّى ينفصل العضوان فجأةً ويحدث النفَس صوتاً انفجارياً (أنيس، ١٩٧٥: ٢٣). ومن أهمّ الحالات التي توحي بها الأصوات الشديدة، الحدّة في القول.

فمن الملاحظ في السورة، أنّه يحدث مسرح جدل الضعفاء والكفّار في مشهد الآخرة ﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ (إبراهيم: ٢٢) وحينما ينتهي هذا الجدل ويسكت الحوار، نرى على المسرح شيئاً عجباً، وهو مقال الشيطان أمام النّاس عندما يصرخ ويقول: ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ**

فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٢٢) فالشيطان الذي أغرى النّاس في مشهد الدنيا، ووسوس في الصدور وزيّن الكفر لهم، يقف في مسرح القيامة بعد هدوء الأنام وسكوتهم أمامهم ويتكلّم معهم بالشدّة والحدّة. كما يعبّر عنه سيّد قطب «وهو يطعنهم طعنةً أليمةً نافذةً، حيث لا يملكون أن يردّوا عليه...» (سيد قطب، ٢٠٠٣، ج٤: ٢٠٩٧). توارد الأصوات الشديدة «القاف والطاء والضاد والدال والتاء والباء والكاف والهمزة» في الآية، متناسق مع سياقها الدلالي؛ إذ يوحي بالشدّة المتمثّلة في السياق وتنتقل هذه الدلالة عبر تلاؤم الموسيقى والمضمون إلى المتلقّي. ويقع كلّ هذه الحروف في نَسَقٍ منسجمٍ ومتوازٍ مع المعنى الذي تحمله الآية؛ بحيث يساعد الانسجام المكوّن من خلال صوت الهمزة في بنية الآية على نقل المعاني إلى المتلقّي؛ على سبيل المثال، استخدام الهمزة، خاصةً في الفقرة النهائية، ينسجم مع الفضاء المملوء بالرعب والوحشة والتوبيخ من ناحية الشيطان؛ لأنّه «صوت شديد والنطق به عملية تحتاج إلى جهد عضلي ممّا يجعل الهمزة أشدّ الأصوات» (أنيس، ١٩٧٥: ٩٠). إضافةً إلى هذا، فإنّ الشيطان من خلال هذا المشهد، يلوم ويوبّخ النّاس في حضورهم علانيّةً، كشخص وقف أمام النّاس على منبر ويتكلّم معهم. فيتناسق صوت الهمزة مع سياق الآية ويشير بهذا المنظر؛ لأنّ صوت الهمزة في بداية اللفظ «يأخذ صورة البروز كمن يقف فوق مكان مرتفع فيلفت الانتباه، كهاء التنبيه، والصورة البصرية للهمزة تتّصف بالحضور والوضوح والعيانية. كما بدأت الضمائر للمتكلّم والمخاطب بالهمزة» (عبّاس، ١٩٩٨: ٩٥). وهذا البيان قد ظهر في ألفاظ نحو «أَنْفُسَكُمْ، أَنَا، أَنْتُمْ، إِنِّي، أَشْرَكْتُمُونِ، إِنَّ، أَلِيمٌ». كما أنّ تكرار صوت "الدال" المجهورة والشديدة في "وعد" و"دعو" ساعد على تدعيم مكانة الشدّة والحدّة في هذا المشهد. وليس لهذا التكرار في السياق القرآني إلّا اقتضاء المقام الذي يتمّ تفهيمه وإفادته إلى المتلقّي.

ويسلك الفضاء الدلالي في سورة إبراهيم (ع) نهجاً خاصاً يجادل فيه المؤمنون ورسلهم مع الكفّار، وهذا السياق يحتاج إلى القوّة والشدّة في البيان، لتأثيره على الآذان والأفئدة. ولا يحصل هذا التأثير في البُعد الموسيقى إلّا باستخدام الأصوات المجهورة والشديدة التي ميزتها البارزة هي التشديد على المضمون. ولكن عندما يحمل السياق دلالة الراحة والرأفة، فيروح النصّ نحو بُنى صوتيّة رخوة متناسبةً مع المضمون. لذلك حينما نرى أنّ نصّ الآية يدور على هذه المضامين،

تنتشر فيه الأصوات ذات صفة الرخوة أو الاحتكاكيّة التي لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً عند النطق بها، أو تميل الأصوات إلى ما يتوسّط بين الشدّة والرخاوة؛ ليتناسق الصّوت والموسيقى مع الفضاء المعنوي في الآية. لهذا لقد تمّ تصويرٌ رائعٌ في الفقرة النهائية للآية السادسة والثلاثين:﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (إبراهيم: ٣٦) وفي هذه الآية نشاهد أنّ إبراهيم (ع) يكلّم ربّه بهمس وهدوء ولا يطلب الهلاك لمن يعصيه من ذرّيته ولا يستعجل لهم العذاب، إنّما يكلهم إلى غفران الله ورحمته ويلقي على الجوّ، ظلال الرحمة والمغفرة (سيد قطب، ٢٠٠٣، ج٤: ٢١٠٩). وهذه الرحمة والمغفرة تُفهمان أيضاً من خلال توارد وانتشار الأصوات الرخوة «الحاء والصاد والفاء والغين والهاء» والمتوسّطة في الآية. على سبيل المثال يوحي تكرار حرف "الياء" المتوسّط بين الشدّة والرخاوة في هذه الألفاظ: «تَبِعَنِي، مِنِّي، عَصَانِي، رَحِيمٌ» بالحوار الناعم المنخفض بين إبراهيم (ع) وربّه؛ لأنّ هذا الحرف يلقي على المسامع صوتاً مهدئاً مريحاً يشير بالهمس المنخفض كما يوحي بزفير يبثّ من أعماق الوجود (قويمى، ١٣٨٣: ٢٢-٢٧). يشاهد المتلقّي تصوير هذا الحوار المنخفض من خلال الموسيقى المنبعث من التناسق الصوتي وانسجام الحروف الاحتكاكيّة والمتوسطة بين الشدّة والرخاوة.

أما في هذه الآية فقد وُصِفَت الجنّة بما يسرّ النفس ويمتّع القلب؛ ﴿وَأُدْخِلَ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (إبراهيم: ٢٣) وهذا المكان ظاهر على نفسية المتلقّي ومحبوب، يتوق إليه الإنسان؛ لأنّه يجد الراحة والطمأنينة عنده وهذا ما قصده النصّ القرآني في هذه الآية؛ إذ صوّر للإنسان أجمل مكان يمكن أن يتخيّله ويرغب فيه (السلامي، ٢٠١٦: ٢٣٥). والراحة والطمأنينة الموجودة في الجنّة التي يتضمّنها معنى الآية، تنسجم مع انتشار الأصوات الاحتكاكيّة فيها نحو «الحاء والخاء والسين والصاد والفاء والعين والهاء» التي حضورها غالبة على الأصوات الانفجاريّة. فعلى سبيل المثال تكرار صوت "الحاء" أوحى لنا بملمس حريري ناعم دافئ... وهو بحفيف النفس أثناء خروج صوته من أعماق الحلق، يرفد اللسان العربي بأعذب أصوات الدنيا قاطبة وأوحاها بمشاعر الحبّ والحنين (عبّاس، ١٩٩٨: ١٨٢). كما أنّ تكرار صوت "الهاء" الاحتكاكيّة يناسب إيحاءات النصّ ودلالة العطف والرقّة، إذ وصف "الهاء" بكونه من الأصوات الرخوة (أنيس، ١٩٧٥: ٢٦؛ جنان، ٢٠١٠: ٤). وكان السياق القرآني في كلتا الحالتين مناسباً بأصواته وإيقاعاته لإيحاءات النصّ.

تبيّن حين دراسة الأصوات الشديدة والرخوة في سورة إبراهيم (ع) أنّ الصّوت والمعنى متناسقان وسرّ هذا كلّه يكمن في الانسجام والتناسق الذي يحصل بين هذه الأصوات في صفاتها؛ لأنّه عندما أراد النصّ أن يتكلّم عن مواضيع ومعان يحتاج التعبير عنها إلى الشدّة والقوّة، نشاهد أنّ تواتر الأصوات الانفجاريّة غالبة في الآية، و عندما يقصد النصّ الأمور التي توحي بالراحة، نرى أنّ انتشار الأصوات الاحتكاكيّة والأصوات المتوسطة بين الشدّة والرخاوة أظهر من الأصوات الأخرى لكي تتناسق الموسيقى مع سياقها الدلالي؛ لأنّ الصّوت والمعنى في القرآن الكريم يرتبط كلّ منهما بالآخر ارتباطاً لا يقبل التفرقة.

نتائج البحث

لقد عالجنا في هذا المقال سورة إبراهيم (ع) من منظار التناسق الصّوتي؛ وبعد تحليل علاقته بالسياق، اتّضح أنّ الموسيقى الناتجة عن أصوات الحروف في الآيات متناسقة مع المعاني ودلالتها في الآية. وما هذه المعاني والمضامين إلّا دلالة على إعجاز القرآن عموماً وإعجازه الصّوتي على وجه الخصوص.

• إنّ الصوت داخل الكلمة يقع في خدمة المعنى المتوخّى من سياق سورة إبراهيم (ع)، والتناسق الصوتي يكشف لنا عن القيمة الذاتية للألفاظ من جهة دلالاتها المعنويّة. كما أنّ في سورة إبراهيم (ع)، عندما يدور المضمون على ما يفيد معاني الشدّة والقوّة كالوعيد والترهيب، حيث يستدعي جلب انتباه المتلقّي أكثر فيختار النصّ عنده كلمات تنسجم مع البنية الموسيقيّة، انطلاقاً للمضمون الذي ينطوي عليه؛ فتظهر الأصوات المجهورة والانفجاريّة في هذا السياق بشكل ملفِت. وعند إفادة معاني السكون والراحة والهدوء في النصّ، يتمّ استخدام كلمات تكثر فيها الأصوات المهموسة والاحتكاكيّة وذلك في ضوء ما تقتضيه البنية الموسيقيّة أو السياق الدلالي الذي يفهمها المتلقّي بشكل ملموس.

• إنّ توارد الأصوات المجهورة سائد في السورة؛ لأنّ أجواء السورة تدور حول الجدل بين الرسل والكافرين. ومن هذا المنطلق، يستخدم النصّ حروفاً تكون ميزتها الصوتيّة متناسقة مع مضمون السياق. ولذلك نلاحظ عند الحديث عن الموضوعات التي تحتاج في بيان معناها إلى الوضوح والقوّة، يتمّ اختيار الأصوات المجهورة للتأثير في أذهان المتلقّين؛ لأنّ الجهر صفة قويّة تمنح الصوت

الموصوف بها وضوحاً في السمع. ولكن عندما يهدف النصّ إثارة الأحاسيس المرهفة الليّنة، يختار الأصوات المهموسة لإفادة السكينة والطمأنينة الموجودة فيه إلى المخاطب إضافة إلى الرسل. وكلّ هذه الأصوات مجهورة أو مهموسة تتناسق مع نظام معيّن يهدف إلى دلالة يقصدها النصّ.

• إنّ الصّوت والمعنى متناسقان في سورة إبراهيم (ع). فالأسلوب التعبيري في سورة إبراهيم (ع) يستخدم الأصوات الانفجاريّة في المواضع التي يدور مضمونها حول معان يحتاج التعبير عنها إلى الشدّة والقوّة ولكن حين يقصد الأسلوب الراحة، نجد أنّ انتشار الأصوات الاحتكاكيّة والأصوات المتوسطة بين الشدّة والرّخاوة يغلب على الأصوات الأخرى حيث يكون كلٌّ من الأصوت والمعاني مرتبطاً بالآخر ارتباطاً لا يقبل التفرقة.

وأخيراً دلّت البيانات الإحصائية على أنّ التناسق الصوتي والموسيقى الناتجة عن اختيار الألفاظ وصفات الحروف من جهة الجهر والهمس والشدّة والرخاوة ونظمها في سياق الآية، من السمات الإعجازيّة في سورة إبراهيم (ع)؛ وهذا التناسق إمّا تتمثل في مفردة بعينها وإمّا تظهر في حروف متتالية تتّسم بصفات متشابهة همساً وجهراً أو شدةً ورخاةً لكي يتناسب الصوت بصورة بديعة مع المعنى.

المصادر والمراجع

الكتب العربية

القرآن الكريم

ابن عاشور، محمّد طاهر (١٩٨۴م): **التحرير والتنوير**، تونس، الدار التونسية للنشر.

ابن منظور، محمّد بن مكرم بن علي (١۴١۴ق): **لسان العرب**، ط٣، بيروت، دار صادر.

أنيس، إبراهيم (١٩٧۵م): **الأصوات اللغويّة** ، ط ۵، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

بشر، كمال (٢٠٠٠م): **علم الأصوات**، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر.

الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى (٢٠١٠م): **تاج العروس من جواهر القاموس**، دار الهداية.

السّعران، محمود (١٩٩٧م): **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي.

سيّد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي (٢٠٠۴م): **التصوير الفنّي في القرآن**، ط ١٧، القاهرة، دار الشروق.

..... (٢٠٠٣م): **في ظلال القرآن**، القاهرة، دار الشروق.

الشعراوي، محمّد متولي (١٩٧٧م): **تفسير الشعراوي الخواطر**، مطابع أخبار اليوم.

الشوكاني، محمّد بن علي (٢٠٠٧م): **فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الكتب العلمية.

كمال الدين، حازم علي (١٩٩٩م): **دراسة في علم الأصوات**، القاهرة، مكتبة الآداب.

عزّالدين، علي السيّد (١٩٨۶م): **التكرير بين المثير والتأثير**، ط ٢، عالم الكتب.

الصّغير، محمّد حسين علي (٢٠٠٠م): **الصّوت اللغوي في القرآن**، ط ١، بيروت، دار المؤرّخ العربي.

عبّاس، حسن (١٩٩٨م): **خصائص الحروف العربيّة ومعانيها**، منشورات إتحاد الكتاب العرب.

مبارك، محمّد الصاوي محمّد (١٩٩٢م): **البحث العلمي أسسه وطريقة كتابته**، القاهرة، المكتبة الأكاديمية.

نجّاريان، ماجد (١٣٩٥ش): **الدلالة الصّوتيّة في القرآن الكريم**، إصفهان،كتابنامه نجف.

الكتب الفارسية

قويمی، مهوش (١٣٨٣ش): **آواها والقاها رهيافتی به شعر اخوان ثالث**، چاپ اول،تهران، هرمس.

الرسائل الجامعية

عبد الرحمن، مروان محمّد سعيد (٢٠٠٦م): «**دراسة أسلوبية في سورة الكهف**»، الأطروحة لنيل إلى درجة الماجستير، جامعة النّجاح الوطنيّة. نابلس.

المقالات

بريمة، خالد يوسف مرجب (٢٠١٧م): «تناغم الصّوت والحرف والمعنى في اللفظ القرآني»، **مجلة كلية التربية للعلوم والآداب**، العدد ١، صص ١٢-١.

السلامي، عمار عبد الأمير (٢٠١٦م): «دلالة المكان في صورة الجنّة والنار»، **مجلة كلية التربية للبنات**، السنة ١٠، العدد ١٩، صص ٢٤٢-٢١٧.

السلمي، عبدالرحمن بن رجاء الله (١٤٣٥ق): «التناسق الصوتي في القرآن الكريم، سورة مريم أنموذجاً»، **مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية**، العدد ١٧، صص ٣٥٠-٣٠٧.

جنان، محمّد مهدي (٢٠١٠م): «الإيقاع الصّوتي الإيحائي في سياق النصّ القرآني»، **مجلة كلية التربية للبنات**، المجلد ٤/٢١، صص ٨٤١-٨٣٠.

زهار، محمّد، والصالح قسيس (٢٠١٣م): «من وظايف الصّوت وجمالية الإيقاع في النصّ الشعري الجزايري نماذج من قصيدة "فتاة الطهر" لسعد مردف»، **مجلة الممارسات اللغويّة**، العدد ٢٠، صص ٢١-٤٤.

عبد العزيز محمّد عبد السند، عازة (٢٠١٦م): «البعد التصويري والإيحائي للإيقاع الصّوتي»، النصّ القرآني أنموذجاً، **مجلة كلية اللغة العربيّة**، المجلد ٣٥، العدد ٢، صص ١٤٣٣-١٣٥٥.

هماهنگی‌های صوتی و دلالت آن در قرآن کریم

«مطالعه موردی سوره إبراهیم (ع)»

نوع مقاله: پژوهشی

علیرضا روستایی[۱]، علی اصغر روانشاد*[۲]، وصال میمندی[۳]، علی بیانلو[۴]

۱. دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی دانشگاه یزد

۲. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه یزد

۳. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه یزد

۴. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه یزد

چکیده

انسجام آوایی از گذر نظم موجود در صفات حروف کلمات نمایان می‌گردد، به‌گونه‌ای‌که با مفهوم برداشت شده از متن سازگاری دارد. از این رو، بررسی هماهنگی‌های صوتی در قرآن کریم با هدف کشف زیبایی‌های ساختاری و زبانی این کتاب آسمانی همواره کانون توجّه پژوهشگران بوده است؛ چرا که واکاوی و تبیین این زیبایی‌ها، از جنبه‌های اعجاز هنری قرآن پرده برمی‌دارد. یکی از وجوه اعجاز قرآن کریم، ساختار موسیقایی آن است که مهم‌ترین سطح در بررسی سبک‌شناسی و نخستین محور برای ورود به دنیای متن آیات، سبک و فضای آن به شمار می‌رود؛ چرا که پیوند میان موسیقی و مفهوم، منجر به رساندن بهتر مضمون به مخاطب و برانگیختن احساسات وی می‌گردد. بر این اساس، پژوهش حاضر، سعی دارد سطح آوایی سوره ابراهیم (ع) بر اساس روش توصیفی - تحلیلی و آماری مورد تحلیل و بررسی قرار دهد. نتیجه پژوهش، بیانگر پیوند میان معنی و موسیقی حروف این سوره در پیش روی مخاطب است؛ زیرا زمانی‌که بافت زبانی آیه در صدد القای مفاهیمی باشد که بیان آنها نیازمند به شدّت و قوّت است، واژگانی انتخاب شده که موسیقی حروف بکار رفته در آن، همراه با شدّت و قوّت است. امّا هنگامی که سیاق آیه در پی بیان مفاهیمی همچون حسّ آرامش و اطمینان به مخاطب باشد، در می‌یابیم که گزینش واژگان به‌صورتی است که کاربست حروف بی‌واک و سایشی و حروف ما بین شدّت و رخاوت در آن نمود بیشتری دارد. بنابراین، موسیقی حاصل از ویژگی‌های حروف از نظر جهر، همس، شدّت، رخاوت و چگونگی ترازبندی آنها در متن آیه از جمله ویژگی‌های معجزه‌آسای قرآن کریم است، به‌طوری‌که همه این ویژگی‌ها با فضایی که این موسیقی در آن جریان دارد، هماهنگ است.

کلید واژه‌ها: سوره إبراهیم (ع)، انسجام صوتی، اصوات، معنا.

* نویسنده مسئول ravanshada@yazd.ac.ir

Audio harmony and it,s meaning in the Qur'anic context "Case study of Surah Ibrahim"

Article Type: Research

Alireza Roustaei.[1] Ali Asghar Ravan Shad.*[2] Vesal meymandi.[3] Ali Bayanlu.[4]

PhD student in Arabic language and literature, Yazd University
Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Yazd University
Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Yazd University
Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Yazd University

Abstract

Phonetic consistency is manifested by the order in the character of letters in words; To the extent that this arrangement is consistent with the concept derived from the text. Relying on this approach and in order to discover the structural and linguistic beauties hidden in the Holy Quran, this divine book has always been the focus of scholars; Analyzing and explaining these beauties to the audience is one of the things that reveal the aspects of the artistic miracle of the Qur'an. One of the miraculous aspects of the Holy Quran is its musical structure, which is the most important level in the study of stylistics and the first axis for entering the study of literary texts. In a way, the fit and connection between music and the concept leads to a better transmission of meaning to the audience and arouses their feelings. The purpose of this study is to analyze Surah Ibrahim based on descriptive-analytical and statistical methods, and focusing on its phonetic level. The result of the analysis of the surah in this research shows the connection between the meaning and the music of the letters in front of the audience; Because the thematic atmosphere of Surah Ibrahim is drawn in line with the

Corresponding Author* ravanshada@yazd.ac.ir

controversy between the divine messengers and the infidels. For this reason, when the context of the verse seeks to instill fear and warning of the disbelievers, it chooses words in which the music of the letters corresponds to their meaning in the verse. Also, in the context of such verses with the subject of fear and warning, in order to have a greater impact on the ears and minds of the audience, the choice of unknown and explosive letters prevails over other sounds. But when the context of the verse seeks to instill concepts such as a sense of calm and serenity in the audience, such as the atmosphere of prayers and conversations of the prophets with God Almighty, the context of the verse chooses words whose music also inspires peace; In addition, the frequency of emission of tangible sounds and occurrences and moderate sounds between intensity and occurrence in these verses have a more significant application.

key words: Surah Ibrahim, Audio consistency, Sounds, meaning